حياته

إنه أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى..

يقول عنه صاحب « الكواكب الدرية» :

« العارف الناطق بالحقائق . الفاتق للطرائق ، ذو العبارات الوثيقة ، والإشارات الدقيقة ، والصفات الكاملة ، والنفس العالمة العاملة ، والهمم الجليَّة ، والطريقة المَرْضيَّة ، والمحاسن الجزيلة المتَّبعة ، والأفعال والأقوال التى لا تخشى منها تَبعة ، زَهَتْ به مصر وديارها ، وأشرق بنوره ليلها ونهارها » (١) .

ويقولون فى وصفه :

« كان رجلاً نحيفاً تعلوه حُمْرَةٌ » .

*** كيف كان ذو النون فى طفولته وشبابه ؟..**

فى ذلك يقول يوسف بن الحسين :

استأنست بذى النون ، فقلت له :

أيها الشيخ : ما كان بدء شأنك ؟

قال :

« **كنت شاباً صاحب لهو ولعب** » .

ونحب أن نقف ونقول أولاً : إنه كان يعيش الحياة العادية للشبان لا يعبأون بوقت يمر لا يشغلونه بما يفيد ، ولا تعنى الكلمة أنه كان عاصياً سيِّئ الأخلاق ، لأنه يقول بعد ذلك :

---

(١) الكواكب الدرية ص ٢٢٣ .

« **وخرجتُ حاجّاً إلى بيت الله الحرام** » .

ثم يقول :

« **ومعى بضيعة فى المركب مع تجار من مصر** » .

وهذه الكلمة الأخيرة، قد ترشد إلى أنه اشتغل فى شبابه بالتجارة .

ويبدو أن هذه الحجَّة كانت الأساس فى اتجاهه إلى الله .

والواقع أن الحج مَن الوسائل الكبرى للتوبة الصادقة والإخلاص والصدق، وأن أعمال الحج منذ أن تبدأ بالتوبة، ولبس الملابس البيضاء - ملابس غير مخيطة لم يدخلها المقص، ولم تعمل فيها الإبرة ، ولم تُدَنَّسْ بالذنوب - وصلاة ركعتين مع النية التى تتجه إلى الله فى العون والمثوبة ، ثم الجهر بالتلبية : أى : الاستجابة الخالصة لله فى أعماله، ثم بقية الأعمال التى تنتهى برجم مصدر الشر - إبليس - ثم الطواف على طهر ونقاء . .

إن كل ذلك فيما أفترض هو مبدأ تحوُّل ذى النون .

إنى أفترض - إذن - أن هذا الحج كان من العوامل المهمة فى حياة ذى النون، وأنه فصل فيها بين مرحلتين :

* **إحداهما:** المرحلة العادية الأولى .

* **والثانية :** هى مرحلة التزكية .

ومع ذلك فهناك مجال لاحتمالات أخرى . . وهذه الاحتمالات نأخذها على أنها رمزية جميلة فى رمزيتها، أو نأخذها على أنها حقيقة عجيبة فى وصفها .

أحد هذه الاحتمالات : ما روى من أنه سئل عن سبب توبته . . فقال :

« خرجتُ من مصر لبعض القرى ، فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى، ففتحت عينى، فإذا بقُبَّرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض، فخرج منها سكرجتان: إحداهما ذهب، والأخرى فضة. وفى إحداهما سمسم، والأخرى ماء ، فجعلتْ تأكل من هذه ، وتشرب من هذه ؛ فقلتُ: حسبى، قد تبتُ ، ولزمتُ الباب إلى أن قَبِلَنى » (١) .

هذه هى قصة الاحتمال الثانى .

وما من شك فى أن الرزق مضمون ، وأن الله سبحانه قد ضمن الرزق :

﴿وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢) .

ثم يقسم الله تعالى على ذلك فيقول :

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (٤) .

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم .
(٢) سورة الذاريات : ٢٢ .
(٣) سورة الذاريات : ٢٣ .
(٤) سورة هود : ٦ .

وهذه القصة التى تُروى على لسان ذى النون : أهى قصة رمزية أراد بها ذو النون أن يوضح عناية الله بمخلوقاته، ورحمته بهم، ورعايته لهم، وهو سبحانه الرحيم الودود، الرءوف الرحيم، أرحم الراحمين، وخير الكرماء ؟

أم هى **قصة حقيقية** . . وأن لله تعالى عجائب فى الكون تظهر لذوى البصيرة، لا يعدها عد ، ولا تحدها حدود ؟! . .

وليست القصة بمستحيلة، وإنها لفى غاية الجمال فى الدلالة على جميل عناية الله بمخلوقاته .

واحتمال ثالث: يقول صاحب «الكواكب الدرية» عن ذى النون :

وكان اسمه **ثوبان بن إبراهيم**، وقيل : **الفيض** ، وأصله من **النوبة** ، ثم نزل **إخميم** ، فأقام بها ، فسمع يوماً صوت لهو ودفاف .

فقال :

ما هذا ؟

قيل : عرس .

وسمع بجانبه بكاء وصياحاً .

فقال :

ما هذا ؟

فقيل : فلان مات .

فقال :

« **أعطى هؤلاء فما شَكروا ، وابتلى هؤلاء فما صَبروا** » . . وأقسم أن لا يبيت بالبلد، فخرج فوراً إلى مصر فَقَطَنَهَا .

وهذه فى الواقع قصة عادية تحدث كل يوم . . ويمر بها الناس فلا تثير فى نفوسهم شيئاً .

ومع ذلك : فإنها عبرة للذين هيَّأ الله نفوسهم للتأمل فى عِبَر الحياة حينما تمر بهم ، والحياة مليئة بالعبر ، يمر بها قوم فلا يلتفتون إليها ، ويمر بها آخرون فيفكرون ويتأملون ويدخلون فى نطاق من يقول الله تعالى فيهم :

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(١) .

لقد هيأ الله نفس ذى النون فى تلك الساعة ، فأثرت فيه عبرة الحياة ، فكانت الهداية .

وهذه الاحتمالات لا ينفى بعضها بعضاً ، ومن الممكن أن تكون قد تكاتفت وتعاونت ، فانتهت به إلى التأثير فى جميع أقطار نفسه ، فتابَ وأنابَ وسَلَكَ الطريق .

ثم إنها لا تنفى **احتمالاً رابعاً** له قيمته الكبرى فى نظرنا ، وذلك أن صاحب « الحلية » يقول : « وكان **شيخُه فى الطريق شقران العابد** » .

ـ هل كان **شقران** أساس هدايته ؟ . . هل تلقَّفه قبل أن تتحول به الحياة من طريق إلى طريق ؟ . . فكان الموجِّه له ، والمرشد له بعد الحج ؟

---

(١) سورة آل عمران : ١٩١ .

. . أم تلقَّفه وهو فى حيرة يتحسس الطريق حتى يسير آمناً مطمئناً؟

ـ إنها احتمالات كلها ممكنة .

ولعلها جميعاً تعاونت فأخرجت لنا ذا النون المصرى ، رضوان الله عليه .

ومهما يكن من شىء . . فإننا نرى أن توبة ذى النون إنما بدأت برحلته هذه إلى الحج ، ويبدو أنه أخلص النية فى هذا الحج فرجع منه كيوم ولدته أمه .

ورسول الله ﷺ يقول :

«مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنوبِه كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

ورسول الله ﷺ يتناسق مع القرآن الكريم فى هذا إذ يقول الله تعالى :

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (١) .

والرفث : فحش اللسان ، **والفسوق** : فحش الجوارح ، **والجدال** : النزاع والمشاحنة .

إن ذا النون تأثر ـ لا شك ـ بالحج ، وهو حينما يتحدث عن هذه الحجة الأولى يتحدث معها عما شاهده فيها من تجليات الله على بعض عباده ، وأن ذلك أثَّر فى نفسه .

بيد أن العامل الحاسم فى حياة ذى النون إنما هو لقاؤه بـ « **شقران العابد** » .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

وكان **شقران** شخصية ممتازة قوية، وإن كنا لم نعثر له على كتب أو ترجمة مستفيضة، ولكن الإمام الشعرانى يقول عنه :

«**شقران المغربى العابد:** شيخ ذى النون المصرى، عارفٌ ظَهَرَ ضياؤه، وطابَ ذِكرُه وثناؤه، كان ذا أحوال باهرة، ومقامات فاخرة».

ومن كلامه :

« إن لله عباداً خرجوا إليه بإخلاصهم ، وشمَّروا إليه بنظافة إسرارهم، فأقاموا على صفاء المعاملة، وبادروا إلى استماع كلامه بحضور أفهامهم، فعند ذلك نظر إليهم بعين الملاحظة فأجزل لهم المواهب، وحُقَّتْ لهم منه العطايا، فشمُّوا روائح القرب من قربه ، وهَبَّتْ عليهم رياح اللقاء من تحت عرشه، فتطايرت أرواح قلوبهم إلى ذلك الروح العظيم ، ثم نادت : لا بَراح » .

وقال :

« ألا خِلٌّ خدوم ؟

.. ألا صديقٌ يدوم ؟

.. ألا حليفُ وداد ؟

.. ألا صحيحُ اعتقاد ؟

.. أين من استراحَ قلبه بحب الله ؟

.. أين من ظهرَ على جوارحه نور خدمة الله ؟

.. أين من عرفَ الطريق ؟

.. أين من نظرَ بالتحقيق ؟

.. أين من سُقِى فبَاح ؟

.. أين من بكى وناح ؟

ـ أولئك تحفُّ بهم الملائكة بالليل والنهاروتسلِّم عليهم الحيتان من البحار » .

ومن كراماته :

أنه أراد ليلة أن يغتسل فلم يجد ماء ، فلحظ إلى السماء وقال :

« اللهم قد عجزتُ عن الماء ، وانقطع رجائى من غيرك، فاعطفْ على قلة حيلتى، فسمع وقع الماء فى الإناء فقام إليه فوجده بارداً، فحرَّك شفتيه فإذا به قد سخن ... » .

«وقد مات بمصر ودفن بالقرافة بقرب قبر عقبة » . . اهـ .

ـ أين التقى به ذو النون ؟.. وكيف أخذ العهد عليه ؟

ـ وما هى الكيفية التى رسمها له ليسير فى معراجه إلى الله ؟

كل هذه أسئلة لا نجد لها جواباً من التاريخ ، ولكنها أسئلة ليست بجوهرية فى موضوعنا ، ذلك أن الطريق الذى يرسمه الشيخ ـ كل شيخ صادق ـ معروف فى جوهره : إنه يبدأ بالتوبة الصادقة النصوح .

وهذه هى الخطوة الأولى الأساسية . . وهى خطوة من صميم الشرع ، فالتوبة من الذنوب واجبة ، بل هى مطلوبة ، ولو لم تكن هناك ذنوب من الذنوب المتعارف عليها ، وقد قال الله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٢ .

أى : الذين يكثرون من التوبة، وما التوبة إلا خضوع وتضرُّع وتذلُّل، فهى من صميم العبودية، ومن أجل أنها من صميم العبودية كان رسول الله ﷺ يتوب إلى الله ويستغفره فى اليوم مائة مرة .

ولقد حث الله عباده على التوبة بشتى الأساليب، من ذلك قوله تعالى فى حديث قدسى، فيما رواه الرسول ﷺ عن الله تبارك وتعالى :

« يَا عبَادى : إنَّكُم تُخطئونَ بالليلِ والنَّهارِ ، وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جميعاً ؛ فاسْتَغفرونى أَغفِرْ لَكُمْ » .

أى : استغفرونى استغفاراً صادقاً، والاستغفار الصادق هو توبة صادقة، فإذا فعل الإنسان ذلك غفر الله له وتاب عليه . والتوبة الصادقة تَجُبُّ ما قبلها، إنها تضع التائب فى مرتبة **«البراءة»** . فإذا ما تاب المريد لقَّنه الشيخ : **« الذِّكر »** .

والذكر من صفات أولى الألباب، وذلك أن من صفاتهم ـ التى ذكرها الله سبحانه ـ أنهم :

﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (١) .

والأمر **بالذكر** فى القرآن الكريم استغرق الأزمنة والأحوال المختلفة للإنسان، سواء أكان تسبيحاً أم تهليلاً وحمداً وتكبيراً وحوقلة .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩١ .

وهذه هى الباقيات الصالحات، وهذه هى المنجيات الحاميات.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى عن النبى «ذى النون» عليه السلام:

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(١)

لقد نجَّاه التسبيح.

ولقد قال أحد من أصابتهم كارثة لإخوته:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢)؟.

أى أنهم لو اتَّبعوا كلامه وسبَّحوا الله لـمَا أصابتهم الكارثة.

ومن **الذكر** الذى يصفه الشيخ لمريده: الصلاة على الرسول ﷺ..

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٣).

فالشيخ ـ إذن ـ فى أخذه بيد المريد إنما يبدأ **بالتوبة** ويثنِّى **بالذكر**.

ولكن الشيخ وقد أخلص وجهه لله، وملأ الله عليه جميع أقطار نفسه؛ فأصبح ربانياً يقود مُريده عن طريق **الأسوة** أيضاً.

إن المريد يرى فى شيخه الاعتماد على الله والتوكل عليه وابتغاء مرضاته فى كل ما يأتى من الأمور وما يدع منها.

---

(١) سورة الصافات: ١٤٣، ١٤٤.

(٢) سورة القلم: ٢٨.

(٣) سورة الأحزاب: ٥٦.

إنه يرى فى شيخه: الصدق، والرأفة، والرحمة، ومواساة البائسين، والعطف على المساكين، وهداية الحيارى، ويرى فيه التأسِّى برسول الله ﷺ، والعمل بما أمر به القرآن، والانتهاء عما نهى عنه القرآن . . فيقتدى بشيخه، ويتأسَّى به .

التوبة ، الذكر ، الأسوة ، وأمر رابع هو تأثير الشيخ روحياً فى المُريد، وهذه الظاهرة معروفة من قديم: إن نظرة الشيخ لمريده لها أثرَها .

ولقد وجد **ذو النون** فى **شقران العابد** الشيخ المرشد؛ فاتبعه إلى أن أصبح هو نفسه شيخاً مرشداً .

* * *